عام مضى..

د. سماح ادريس

عامٌ مضى على إدارتي لهذه المجلّة. أما من وقفة تأمُّل، نستردّ فيها الأنفاس قبل أن نُغِذّ السَّير من جديد؟.

أتأمّل أعداد «الآداب» الّتي أشرفتُ عليها: المؤتمر الثّاني للكتّاب اللبنانيّن، خليل حاوي، غسّان كنفاني، عبد النّاصر، المقاومة الوطنيّة اللبنانيّة، غالب هلسا، المؤتمر الثّامن عشر للاتّحاد العام للكتّاب العرب، ندوة المرأة العربيّة والإبداع، نازك الملائكة، وغيرها، فأشعر بالزّهو بقدر ما أشعر بالنقص. فهذه الأعداد، على جدّيتها وشمولها اللّذين يجعلان مجلّتنا ـ بحقٍّ ـ خادمةً أمينة للثّقافة العربيّة التحرّريّة الجادّة، تستثير فيَّ رغبةً أعرمَ في الكمال. والأهمّ أنّ هذه الأعداد تعيد طرح الأسئلة القديمة التالية على بساط البحث:

ـ ما هو دورُ المجلّة الأدبيّة؟ بل هل ينبغي أن يكون لها دورٌ أصلاً؟

ـ ما موقف المجلّة الأدبيّة من قضايا السياسة، وتحديداً بعد هزائم العرب المتلاحقة؟

ـ هل «الأكاديميا» سَنَدٌ للصحافة الثقافيّة، أم عبءٌ عليها؟

ـ هل اندثرتْ قصيدةُ التفعيلة لصالح ما يُسمّى بقصيدة النثر؟

ـ هل قواعد اللّغة العربيّة سلاسلُ معدنيّةٌ لا فكاك منها؟ وما الحدّ الفاصل بين التقعّر والأصالة في التعبير؟

نحنُ لا نزعم إجاباتٍ نهائيّةً على جميع هذه الأسئلة؛ ففي الوثوقيّة نهايةٌ للثقافة والإبداع. لكنّنا نعمل على تثبيت بعض الأصول الّتي غرستها المجلّة منذ واحدٍ وأربعين عاماً: فنؤكّد على دور الأدب «المتصادي» مع أحداث مجتمعه وطموحاته[1]، ولاسيّما بعدما ازداد اقتناعنا بحاجة الفرد العربيّ إلى «جدار» ثقافيّ منيع يقيه من الانهيار أمام محاولات بعض القوى الغربيّة والعربيّة مسخ شخصيّته وتحويله إلى محض تابع لماكينات السّوق الرأسماليّة الهدّارة، لا عملَ له سوى تأمين شروط الرفاهية لبعض الأنظمة الغربيّة و«إسرائيل»، على حساب أرضِهِ ومائه وزرعه وثقافته وكرامته.

(١) «رسالة الآداب»، العدد الأوّل، السنة الأولى (١٩٥٣)، الصّفحة الأولى.

غير أنّنا، في الوقت ذاته، نعي اليوم، وأكثر ممّا مضى، أنّ «التصادي» ليس فعلاً سحريّاً يتحوّل بموجبه الصدى إلى إبداع. بل إنّ عَكْسَ الكاتبِ أحداثَ مجتمعه وطموحاته لم يعد يستوعبُ توقَ الأدب العربي الحديث إلى الانفتاح على آداب مجتمعاتٍ أخرى، بل توق الكاتب الفرد في أحيانٍ كثيرة إلى الانفلات من شؤون السّياسة والمجتمع والتحليق في متاهات خارجها أو الغوص في ذاته المتأمّلة. ولا نُذيع سرّاً إنْ نحنُ قلنا إنّ الفردَ العربي «القليل الثقافة» قد صار ـ هو الآخر ـ يكره التّصادي المكرّر، بمعنى الشعارات السّياسيّة المتنكّرة بزيّ الآداب، و«الرطانة» المملّة (وهي الكلمة الأثيرة لدى الشّاعر عبّاس بيضون)؛ ولا نعدو الحقيقة إن لاحظنا أنّ الإبداع والتجديد يكادان أن يُضحيا حاجةً شعبيّة (أي ممّا يطمح إليه القارئ «العادي»)، وإنْ كان «الشعبُ» مايزالُ ينفر من الترميز الكتيم، والتهويم الفرداني الشّديد، وتخطّي تسلسل الزمن في الفعل القصصيّ خاصّةً.

وهكذا وجدنا أنفسنا في «الآداب» أمام إشكاليّات عدّة: رغبتنا في التفاعل مع أحداث مجتمعنا وعصرنا، ورغبتنا في التفاعل مع أحداث مجتمعاتٍ أُخرى في الوقت ذاته؛ حرصنا على موقفٍ سياسيّ قوميّ تقدُّميّ، ونفورنا من الرّواسم الجاهزة والأحكام الجامدة والشعارات الانفعاليّة؛ توقنا إلى أن يكون ما تتضمّنه مجلّتنا «مفهوماً» لدى أوسع فئات الشعب المتعطّشة إلى الاستزادة من معارف لا نودّ أن تكون حَكَراً على فئة دون فئة، وطموحنا في الوقت عينه إلى أن ننأى بمجلّتنا عن دغدغة المشاعر السّطحيّة في كُلِّ فرد، وعن أن تكون «السّهولة» مقدّمة لإسقاط الأدب والإبداع والبحث إلى درك التسطيح والتفاهة و... الإسهال.

ولقد كانت الجدّيّة أعظم التحدّيات التي واجهتُها شخصيّاً منذ تسلُّمي إدارة «الآداب». فالحال أنّ «حفلة التسلُّم والتسليم» لم تتمّ للاعتبارات العائليّة وحدها، وإنّما لشعور صاحب المجلّة بأنّ الفعل الأكاديمي هو من أهمّ ما يعوز مجلّاتنا الأدبيّة، ولاسيّما مع اكتساح الميوعة والاعتباطيّة ميدانَ النقد الأدبي، بحيث كادت السّاحةُ أن تفرغ إلّا من ممارسي «التقنيص والتنتيف»، ناهيك عن المتحذلقين الّذين يبهرونك بعلومٍ في النّقد لا يفقهون منها إلّا أسماء بعض دُعاتها[1]. وغنيٌّ عن البيان أنّ لذلك الاكتساح عواملَ كثيرة ليست هذه المقالة القصيرة بصدد التطرُّق إليها. وأيّاً يكن الأمر، فقد قبلنا خيارَ الأكاديميّة، وإنْ لم نُهمل بعضَ مقالات النّقد «الانطباعيّ» أو «الخطرات» النقديّة أو المعلومات السّيريّة (biographical) الّتي رأينا أنّها تفيد ـ كثيراً أو قليلاً ـ في تقييم إنتاج الكاتب.

وأمّا موضوعة «قصيدة النثر» فلقد تطرّق إليها عددان من «الآداب» هما المختصّان بالشّاعرين خليل حاوي ونازك الملائكة. ولابُدّ أن نُفسح المجالَ، في المستقبل، لأصواتٍ تعبّر عن إيمانها بهذه «القصيدة»، وإنْ كنتُ أحدس بأنّ زمن الصّراع حول هذا الأمر قد خفّ أواره وأنّه في سبيله إلى الاندثار.

تبقى مسألة اللُّغة. ونحنُ لا نخفي على القارئ حرصنا الشديد على ألّا نُغرق مجلّتنا بالأخطاء اللّغويّة الّتي تحتشد بها مجلّاتٌ أدبيّةٌ وسياسيّةٌ زميلة. ويكفي أن نشير إلى أنّ المقالة أو القصّة أو القصيدة «تمرّ» ـ في الغالب ـ على د. عفيف دمشقيّة ود. سهيل إدريس قبل أن ترى النّور. على أنّنا ينبغي أن نؤكّد نفورنا من التزمُّت في اللّغة، ونعتبر ذلك التزمّت صِنْو اللّحن؛ ولهذا لا يندر أن يعثر قارئ أعدادنا على ألفاظٍ لا توردها معجماتُ اللّغة وإنّما أجازتها مستجدّاتُ العصر أو رشاقةُ العبارة وعفويّتها وشعبيّتها. وأمّا إذا كانت لجنة القراءة، بإجازتها ألفاظاً وحجبها أخرى، تمارس إرهاباً لغويّاً، فذلك شأن آخر!.

* * *

(١) استعرتُ عبارة «التقنيص والتنتيف» من الأستاذ النّاقد والكاتب المسرحي عصام محفوظ في إحدى الجلسات الخاصّة. والتقنيص هو ترصُّد الطّريدة (وهي هنا: صاحب النّصّ المنقود) وإصابتها؛ ولا يخفى ما للمصدر («التقنيص») من ترجيعٍ لأجواء الحرب الأهليّة اللبنانيّة. وأمّا التنتيف فهو مصدر مستحدث يُردُّ ـ فيما أرى ـ إلى النَّتْف (وهو نزعُ الريش) أو/وإلى النُّتَف (وهي المِزَق).

←

في الختام أُجيب على عددٍ من التساؤلات الّتي وردتني ـ شفاهاً أو كتابةً ـ من قرّاء «الآداب» الغيورين على مجلّتهم:

١ ـ لماذا تُباع «الآداب» بخمسة آلاف ليرة، بينما لا يتجاوز ثمن زميلاتها من المجلّات الأدبيّة الآلاف الثلاثة؟.

٢ـ لماذا لا تغيّرون من شكل المجلّة؟.

٣ ـ لماذا لم نعثر على «الآداب» في أسواق الخليج منذ مدّة؟.

٤ ـ لماذا تأتينا «الآداب»، أحياناً، ناقصة الصفحات؟.

٥ ـ لِمَ كثرةُ المحاور؟ لقد اعتدنا على مجموعة أكبر من القصص والأشعار؟.

٦ ـ أين باب: «قرأتُ العدد الماضي من الآداب»؟ وأين باب «النشاط الثقافي في الوطن العربي والعالم»؟.

٧ ـ لماذا ندرةُ الكتب المُراجَعَة في المجلّة؟.

٨ ـ هل من أبوابٍ جديدة؟.

سأحاول الإجابة على الأسئلة تباعاً. «الآداب» غالية الثمن لأنّها غالية الكلفة أوّلاً، ولأنّنا ـ وهذا الأهمّ ـ لا نتلقّى دعماً من سلطانٍ أو رئيس أو أمير أو... أميرة. أعلم أنّ القارئ قد سئم هذه الأسطوانة الّتي أرهقه بها سهيل إدريس طوال أربعين عاماً، وسئم القارئ كذلك من قولنا إنّ مجلّتنا مشروعٌ خاسرٌ من النّاحية الاقتصاديّة وأنّنا ندمج حسابات المجلّة بحسابات «دار الآداب» ـ والدار، بحمد الله، مشروع اقتصادي ناجحٌ في الغالب! ـ كي لا يصيبنا الإشفاق أو الهلع. ولكنْ صبراً أيّها القارئ! فللاستقلاليّة ثمن يجب تسديدُه. والقارئ الّذي ينعم بمجلّةٍ مستقلّةٍ عليه أن يتحمّل قسطاً من ثمن ذلك النعيم. نحنُ ندرك وضع أكثر القرّاء العرب، وندرك كم ينوؤون يوميّاً تحت عبء مدارس الأولاد وثيابهم وكتبهم وحاجيات البيت، ونعدهم بأنّنا سوف نخفض ثمن المجلّة قريباً، وقد خفضنا بالفعل ثمنَ العدد الّذي بين أيديكم ألفَ ليرة بعد أن انخفضَ سعرُ تداول الدولار بالعملة اللبنانيّة. لكن يحقّ لنا ـ أخلاقيّاً على الأقلّ ـ أن نطالب القارئ بأن يسهم معنا في تحمُّل الخسارة، لأنّ استقلاليّتنا نصرٌ له قبل أن تكون نصراً لنا: ففي «الآداب» قدرٌ أكبر من الحرّيّة (شرط ألاّ تبلغ حدَّ القَدْح والشّتم)[1]، وفيها طاقةٌ أعظم من الرّصانة والتحدّي والالتزام.

وأمّا بصدد شكل المجلّة، فإنّه لا يسعنا تغيير حجمها لئلاّ ينفرط عقدُ المجموعة الكاملة (منذ عام ١٩٥٣). ولكنّنا هنا أيضاً إزاء ازدواجيّة أخرى لدى القارئ. فلقد طالبتني ـ يا أخي ـ منذ دقيقة بتخفيض السعر، وها أنت تطالبني الآن بأن «أسخى» على الغلاف فأغلّفه بـ «السيلوفان» وأفرز ألوانه، وأن أُبدّل نوعَ الورق، وأن أُدخل الرُّسوم، و... وتريد ـ فوق ذلك ـ أن تدفع ثمناً أقلّ؟

لماذا «الآداب» مفقودة في أكثر دول الخليج؟ لأنّ المجلّة، واتّحاد الكتّاب اللبنانيّين الّذي يرأسه صاحب هذه المجلّة، اتّخذا أثناء حرب الخليج الأخيرة موقفاً يُطالب فيه العرب بحلّ مشاكلهم فيما بينهم دون تدخُّل عسكري أمريكي في شؤونهم الداخليّة. ولأنّ بعض دول الخليج لا تميّز بين كاتب ومجلّة، فقد ذهب جميع كتّاب المجلّة بجريرة هيئة تحرير «الآداب»، فحرموا من أن يُسمعوا صوتهم لأشقّائهم هناك.

«الآداب» ناقصة الصفحات؟ سمعنا بذلك وأُخبرنا ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ أنّ الصفحة ما قبل الأخيرة من افتتاحيّة كاتب هذه السطور لشهر حزيران الماضي قد سُلِخَتْ عن أخواتها. وعلى كُلٍّ حال، فنحنُ نحيّي رقيب ذلك البلد، وندعو رقباء بعض دول

(١) راجع شروط النّشر في المجلّة على الصّفحة الأولى.

الخليج السَّابقة الّذكر إلى الاقتداء به؛ فالرقيب ذاك كانَ من سعة الصَّدر بحيث أنّه لم يحرم القرَّاء من قراءة العدد كُلّه، أو من قراءة جزءٍ من مقالي!.

المحاور؟ نعترف بأنَّ المحاور ترهق إدارة المجلّة أكثر ممَّا ترهق القارئ غير المختصّ بموضوع المحور. لكنّنا نعزو كثرة المحاور إلى الأمور التالية:

١ ـ حرصنا على أن تكون المجلّة هادياً للطلاَّب الجامعيّين والباحثين الأكاديميّين الّذين يفتقرون في كثير من الأحيان إلى مجلّة/أو كتاب جامعيْن لأكثر جوانب موضوع المحور (كاتباً كان أم قضيّة).

٢ ـ لا يسع المجلّة الأدبيّة في عصرنا اليوم أن تبقى محض «كشكول» للقصائد والأبحاث والقصص.

٣ ـ شهد عام ١٩٩٢ ذكريات هامّة في وجدان الإنسان العربيّ والمبدع العربيّ: عشرة أعوام على الاجتياح الصهيوني للبنان، عشرة أعوام على المقاومة الوطنيّة اللبنانيّة، عشرة أعوام على انتحار الشَّاعر خليل حاوي، عشرين عاماً على استشهاد غسَّان كنفاني، أربعين عاماً على انطلاقة ثورة يوليو في مصر.. إلى جانب المؤتمر الثاني للكتَّاب اللبنانيّين (وهو أوّل مؤتمر للأدباء يُعقد بعد الحرب الأهليّة اللبنانيّة)، وندوة المرأة العربيّة والإبداع (وهي أوّل ندوة في هذا الموضوع ينظِّمها اتّحاد كتَّاب عربيّ). وكان لابُدّ لـ «الآداب» ـ في انطلاقتها الجديدة ـ أن تتجاوب مع ما تشكِّله هذه الأحداث من مشاعر ومواقف في وجدان الإنسان العربيّ. وقد استأنفنا «سياسة المحاور» منذ مطلع العام الحالي، بالمؤتمر الثّامن عشر للاتّحاد العام للكتَّاب العرب، وبمحور نازك الملائكة. وغنيٌّ عن البيان أنّ اختيارنا لهذه المحاور لا ينحصر بأهمّيتها في حدِّ ذاتها، بل لما لبعضها (وتحديداً: غسَّان كنفاني، وخليل حاوي، ونازك الملائكة، والثّورة النّاصريّة) من أثر بالغ في التوجُّه الشّعري والقومي والتقدُّمي للمجلّة ككلّ.

وأمَّا غياب البابيْن الهامّيْن («قرأتُ العدد الماضي» و«النشاط الثقافي») فهو تقصيرٌ فادحٌ من قبلنا، نأمل أن نتداركه في الأعداد القادمة، وإنْ كنّا لسنا بشديدي التفاؤل، وذلك بسبب صعوبة الاتّصال بالنَّاقد المكلَّف بنقد كلّ عدد سابق وصعوبة وصول ردّه خلال أسبوع، وبسبب تناقص النقَّاد الشموليّين في السَّاحة الأدبيّة اليوم. وثمّة صعوبات شبيهة تعترض باب «النشاط الثقافي في العالم»؛ فإذا لم نتداركها فقد نستغني عن هذا الباب بدل أن نقدِّمه شائهاً مسخاً على طريقة بعض المجلّات الثقافيّة الأخرى.

وأمَّا ندرة الكتب المراجَعة فتعود إلى عدم جودة عددٍ لا بأس به من تلك المراجعات التي تصلنا. ولا نخفي القارئ أنّ هذا الباب هو من أهمّ أبواب المجلّة الثقافيّة الغربيّة؛ ففيه يتصدَّى النَّاقد بكلماتٍ لا تتجاوز الألفين لكتابٍ ما، مُلقياً الضّوء على أهمّ ما جاء فيه، عارضاً إيّاه في سياق كتب المؤلِّف الأخرى وفي سياق الأفكار المختلفة أو المماثلة الخاصّة بكتَّابٍ آخرين، مبدياً مثالب ذلك الكتاب المنقود أو نواقصه. غير أنّ عدداً من كتَّابنا قد فهموا باب «مراجعة الكتب» على غير حقيقته، فتخيَّلوه باباً للنقد السَّريع... وللربح السَّريع أيضاً. ولعلَّ هذا الباب أن يكون اليوم بؤرةَ النقد السَّطحي، ونافذةً (أو نُوَيْفِذَة)[1] يثأر منها نُوَيْقِدٌ (أو نُوَيْقِدة) من الكاتب المنقود أو من أفكاره. وكثيراً ما يدفع رئيسُ القسم الثقافي ـ ويا للأسف ـ بكتّابه إلى إعمال «التقنيص والتنتيف» بالشَّاعر أو الروائي أو النَّاقد المسرحي الَّذين لا يتّفق وإيَّاهم سياسيّاً أو منهجيّاً أو في غير ذلك من الأمور التي تمكن نسبتها إلى «عداوة الكار». فتحوَّلتْ مراجعةُ الكتب في أحيانٍ كثيرة إلى مقالة قصيرة تنعى إلى الشعب العربي روائيّاً كبيراً «انتحر» بمجرَّد إصدار رواية لم تُرْضِ النَّاقد؛ أو

(١) المصطلح من عمل الكاتب الرَّاحل رئيف خوري («قرأت العدد الماضي من الآداب»، الآداب، العدد الثاني، ١٩٥٣، ص ٧٨).

←

تحوَّلتْ إلى فرصة سانحة لشنِّ هجومٍ كاسحٍ على مواقف سياسيّة معيَّنة، متستِّرٍ بجوانب فنّيّة، ومنمِّقٍ بتعابيرَ أكاديميّةٍ سريعة. وقد يكتفي المُراجعُ أحياناً بتلخيص ما جاءَ في الكتاب المنقود، دون تقديم أيّ تقييم، أو قد يُنهي مقالته بجملةٍ تقييميّة واحدة إثباتاً لـ «شخصيّته».

على أنَّ ما تقدَّم في المقطع السَّابق لن يمنعنا من التنكُّر لهذا الباب الشَّديد الأهمّيّة، وإنَّما سنسعى إلى التشدُّد قدرَ المستطاع كي ندرأ عنه آفاتِ بعض النقَّاد الجُدد.

وأمَّا بصدد الأبواب الجديدة المحتملة، فنحنُ نرحِّب بكلِّ اقتراح. وقد استحدثنا ـ بالمناسبة ـ باباً جديداً يُطلّ فيه الماضي على الحاضر والمستقبل، وعنوانه: «ذاكرة الآداب». وتتضمَّن «الذاكرة» مقالة أو قصيدة أو قصّة شكَّلتْ في زمانها علامةً أدبيّةً مميَّزة، أو عكست مرحلةً فكريّةً محدَّدة. وقد يُرافق «الذاكرة» تعليقٌ قصير من صاحب المجلّة أو مدير تحريرها، أو من طرفٍ ثالث نكلِّفه بكتابته. وسوف ننشر «ذاكرتنا» أربع مرَّاتٍ في السنة.

* * *

كانت تلك كلمات من القلب إلى القلب. تحيّةً إلى كُلِّ من استقبل إطلالتنا الجديدة بالورد والحبّ. تحيّة إلى د. فيصل درّاج[1]، والياس العطروني[2]، وآمال مختار[3] وغيرهم وغيرهنّ ممَّن كتبوا ترحيباً بنا. تحيّة إلى كتَّابنا القدامى/الجدد الذين أرسلوا إلينا أحلى الرَّسائل الشَّخصيّة يحثُّوننا فيها على المضيّ رغم الصّعاب؛ ومنهم أحمد دحبور، ويوسف الخطيب، وماجد السَّامرّائي، وجمال الدين خضّور. إنَّنا نحيا برسائلكم وعطركم، يا أصدقاءنا الغيورين ويا قرَّاءنا الودودين. وإنْ كان من خاتمة لهذه الكلمات فلتكن المقاطع التالية المأخوذة من تحيّة د. درّاج:

> ولعلّه من الجميل في هذا الزّمن، المتباهي بسقوطه، أن نرى مجلّة مشغولة بأسئلة الواقع العربيّ، ومخلصةً لأسئلةٍ تبدو لدى البعض قديمة واندفن زمانها... وقد يرى البعض في سياسة مجلّة الآداب الثقافيّة سياسةً تقليديّة... وحقيقة الأمر أنّ مجلّة الآداب ـ كما دورياتٍ وطنيّةً متبقِّية ـ تمارس المسؤوليّة الثقافيّة الوطنيّة أوّلاً، وتبدأ بالواقع والحياة والتّاريخ قبل أن تبدأ من النّصوص القديمة أو المترجمة. بل إنَّها تحاول أن تبني نصّاً جديداً يتّكئ على الدّفاع عن الذّات الوطنيّة المتحرّرة في مواجهة الآليات الّتي تسعى إلى هدمها. وحقيقة الأمر، أيضاً، أنّ الفكر الوطني العربي يمارس حداثته الخاصّة به، وهي التي تتجلّى في الدّفاع عن القيم الوطنيّة الشّاملة التي تسرَّب إليها الوهن والعبثُ والتّفكُّك...
>
> في استمرار مجلّة الآداب واستمرار رسالتها استئنافٌ، في زمنٍ حزين، لفكرٍ عربيٍّ يقاومُ ولن ينطفئ؛ استمرارٌ لمجلّة الدّهور والطّليعة والطّريق والثقافة و«الثقافات» الجديدة؛ استمرارٌ محاصَرٌ، يُنكره بعضٌ ويبتعدُ عنه بعضٌ آخر. غير أنّه استمرارٌ تاريخيٌّ يجد فيه البعضُ ذاته لأنّه لا يودّ أن يفقد هذه الذّات، ولا أن يستبدلها بذاتٍ أخرى لا تنطق باللّغة العربيّة مع أنّها تعرف حرف الضّادِ جيّداً!.
>
> بيروت

(١) «مجلّة الآداب واستمرار الرّسالة»، مجلّة الهدف الفلسطينيّة ١/١١/١٩٩٢، ص ٣٣.

(٢) «الآداب، والوفاء المطلوب»، جريدة اللّواء اللبنانيّة، ٤ أيلول ١٩٩٢، ص ١٥.

(٣) جريدة الصّباح التونسيّة، حزيران ١٩٩٢.